صَخْرَةُ الفُتوحات

لما أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، عرضتْ لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله ﷺ ، وأخذ المعول، ووضع رداءه ناحية الخندق، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا ..﴾[الأنعام:١١٥] الآية، فندر[1] ثلث الحجر، وسلمان الفارسى قائمٌ ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله ﷺ برقة، ثم ضرب الثانية، وقال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ الآية، فندر الثلث الآخر ، فبرقت برقة ، فرآها سلمان. ثمّ ضرب الثالثة، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا ..﴾ الآية، فندر الثلث الباقى، وخرج رسول الله ﷺ، فأخذ رداءه، وجلس . قال سلمان: يا رسول الله ، رأيتك حين ضربت، ماتضرب ضربة إلا كان معها برقة؟ قال له رسول الله ﷺ :

«رأيتَ ذلك يا سلمان؟» فقال: أي ، والذى بعثك بالحق يا رسول الله. قال: «فإنى حين ضربتُ الضربة الأولى رُفعتْ لى مدائن كسرى وما حولها، ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعينى. قال له من حضره من أصحابه: ادْعُ الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ويخرّب بأيدينا بلادهم، فدعا رسول الله ﷺ ، ثم ضربتُ الضربة الثانية ، فرُفعتْ لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعينى» . . قالوا: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يفحتها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ويخرّب بأيدينا بلادهم، فدعا رسول ﷺ ثمّ ضربتُ الضربة الثالثة، فرُفعتْ لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعينى. قال رسول الله ﷺ عند ذلك «دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم». [رواه النسائى].

ولكى تتّضح أركان هذه المعجزة ، أرى أنّه من الواجب أن نشير إلى الموقف الذى حدثت فيه، وهو ما قصّه علينا سبحانهَ وتعالىٰ فى كتابه الكريم حول غزوة الأحزاب:

---

(١) ندر : انفصل وسقط.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[الأحزاب:٩-١١].

والأحزاب هم تلك القبائل التى اجتمعت لقتال رسول الله ﷺ والمسلمين فى المدينة المنورة، وسبب ذلك هو أن نفراً من اليهود منهم (كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق) و (سلام بن أبى الحقيق) و (سلام بن مشكم) و (حيى بن أخطب) النضريون، و(هَوْذة بن قيس)، و(أبو عمّار) من بنى وائل، وهم كلهم يهود، خرجوا فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، فأتوا مكة، فدعوا إلى حرب رسول الله ﷺ، وواعدوهم بعون من انتدب لذلك، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان، فدعوهم إلى مثل ذلك، فأجابوهم، فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم (عينيه بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى) على فزارة، و(الحارث بن عوف المرّى) على بنى مرّة، و(سعود بن رخيلة) على أشجع.

فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجهم، شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضى رأيه.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب (أُحُد)، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر (سلع)[1] فى ثلاثة آلاف، وضربوا عسكرهم، والخندق بينهم وبين المشركين.

فخرج عدو اللَّه (حيي بن أخطب) النضرى حتى أتى (كعب بن أسد القرظى)، وظل يحاوره حتى وافقه على نقض المعاهدة مع محمد ﷺ، ومن ثَمَّ الانضمام إلى جيش الأحزاب.

---

(١) سلع: جبل بالمدينة.

وعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم؛ يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق، ومن أسفل منهم من بطن الوادى من قبل المغرب، حتى ظنّوا بالله الظنون، وأظهر المنافقون كثيراً مما كانوا يسرّون، فمنهم من قال: إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها. ومنهم من قال: يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط.

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتد على المسلمين البلاء، بعث إلى عيينة بن حصن الفزارى وإلى الحارث بن عوف المرِّى، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، لينصرفا بمن معهما من غطفان، ويخذلا قريشاً، ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالة مراوضة[1] ولم تكن عقداً.

فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضيا، أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما، فقالا: يا رسول الله هذا أمر تحبّه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال: بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أنى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

وقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منّا ثمرة إلا شراء أو قِرىً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فسُرّ رسول الله ﷺ بذلك، وقال: أنتم وذاك. وقال لعيينة والحارث: انصرفا، فليس لكما عندنا إلا السيف[2].

لقد كانت هجمة الأعداء على المدينة هجمة قويّة ، فكانت قريش والقبائل الأخرى من الخارج، وكان اليهود من داخل المدينة، وقد أثر هذا التحالف على المسلمين تأثيراً كبيراً، برز من خلال عدة شواهد:

---

(١) مراوضة : رواضه مراوضة ، داراه وخاتله حتى يدخل فيه.

(٢) تفسير القرطبى - الجزء الرابع عشر - ص ١٣١- ١٣٣.

أولاً : صور لنا جل شأنه فى كتابه الكريم الحالة النفسية التى اعترت المسلمين من جرّاء هذه الهجمة ، وذلك من خلال عدة صور :

١ - زاغت الأبصار .

٢ - بلغت القلوب الحناجر .

٣ - تظنون بالله الظنونا .

٤ - زلزلوا زلزالاً شديداً .

ومما قيل فى تأويل هذه الظاهرة :

(زاغت الأبصار) .

قيل : مالتْ ، فلم تلتفت إلا إلى عدوّها ؛ دهشاً من فَرْط الهول .

(بلغت القلوب الحناجر) .

قيل : إنه مثل ضربة فى شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر ، وإن لم تَزُل عن أماكنها ، مع بقاء الحياة .

(وتظنون بالله الظنونا) .

قال الحسن : ظنّ المنافقون أن المسلمين يُستَأصلون ، وظن المؤمن أنهم يُنْصَرون ، ولكن الظاهر من السياق أن شدّة الموقف الذى كان فيه المسلمون جعلهم يظنون ظنوناً لا يرضاها الله ورسوله ، ولكنها لم تتعدّ مجرّد الظن[١] .

(وزلزلوا زلزالاً شديداً) .

قيل : إنه اضطرابهم عمّا كانوا عليه ، فمنهم من اضطرب فى نفسه ، ومنهم من اضطرب فى دينه[٢] .

---

(١) تفسير القرطبى - الجزء الرابع عشر - ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) تفسير القرطبى - الجزء الرابع عشر - ص ١٤٧ .

ثانياً:

أما المنافقون فقد وجدوا الفرصة مواتية؛ ليفصحوا عن بغضهم للإسلام والمسلمين ، وذلك عندما ظنوا أن الدائرة ستدور على المسلمين ، فكان مما عبّروا به عن مكنون صدورهم.

- إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها.

- يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط.

ثالثاً:

حتى أن رسول الله ﷺ قرّر أن يردّ سطوة هؤلاء الأعداء بأن يفرّقهم عن بعضهم البعض، فدعا عينية بن حصن الفزارى والحارث بن عوف المرّى قائدى غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بمن معهما من غطفان، ويخذلا قريشاً، بأن يربعا بقومهما عنهم.

إذاً، فقد كان الموقف عصيباً جداً، من شأنه أن يزلزل الإيمان فى القلوب، ولذلك كان لابدّ من المعجزة والآية الباهرة لتبث اليقين فى قلوب المؤمنين بأن مآلهم هو الانتصار ، وانتشار الإسلام فى أصقاع الأرض.

وقد ترافقت هذه المعجزة مع إحدى معجزات الطعام فى الحديث الذى رواه جابر بن عبدالله رضى الله عنهما، والذى أخبر فيه أن طعاماً قليلاً صنعه لرسول الله أكل منه أهل الخندق جميعاً، وقد كانوا فى ذلك الموقف ألفاً.

أما طبيعة المعجزة فتجلّت فى أنّ المسلمين حاولوا بمعاولهم أن يحطّموا هذه الصخرة، فلم تُجْد محاولاتهم نفعاً، فلجأوا إلى رسول الله ﷺ ؛ لثقتهم فى أن ما يعجزون عنه يصبح سهلاً ميسوراً على يدى رسول الله.

أما رسول الله ﷺ فقد كانت ضرباته الثلاث كفيلة بإنهاء أمر الصخرة الصلبة. ولو أنه ﷺ كان كغيره من المؤمنين فى ذلك الوقت، لما استطاع أنْ يفتّ

فى عضد الصخرة. ولكنه استطاع؛ ليعلم المؤمنون من خلال ذلك أن رسول اللهﷺ مؤيَّد من قبل الله، ومن كانت القدرة الإلهيَّة مرافقة له أو حاضرة فيه، فإن الأحزاب سيرجعون عنه خائبين ومهزومين حتى ولو كانت القوّة الأرضيَّة كلها فى أيديهم.

وفى نفس هذا المسار يندرج الحديث التالى:

* عن جابر قال: كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفره، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم طعاماً، ولا نقدر عليه، فعرضت فى الخندق كدية[1]، فجئنا إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذه كدية، قد عرضت فى الخندق، فرششنا عليها الماء، فقام النبى ﷺ وبطنه معصوب بحجر، فأخذ المعول أو المسحاة ثمّ سمّى ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل[2].

[رواه الدارمى. ورواه البخارى ومسلم وأحمد بإضافات أخرى، لم ترد لدى الدارمى]

وفى هذا الأثر لم تنقسم الكدية إلى أقسام عديدة، بل تحولتْ من صخرة صلبة كَأْدَاء إلى تراب ينهال انهيالاً.

والأثر بهذه الدلالة يشير إلى أن الصخرة لم تكن صخرة واحدة بل أكثر من ذلك، الأولى حطمها رسول الله ﷺ بالمعول إلى ثلاثة أجزاء، ورأى فى بريق كل ضربة وعداً من وعود الله تعالى له ولأمته، والثانية لم تملك أمام ضربة رسول الله إلا أن تصبح تراباً مهيلاً، يشهد المسلمون من خلال انهيالها آية على صدق وعد الله تعالى على لسان رسوله، وهم يرون الصخرة العظيمة التى أعيت الرجال الأشداء تصبح أمام ضربة رسول الله كومة من تراب.

---

(١) الكدية: القطعة الصلبة من الأرض.

(٢) أهيل: ينهال، فيتساقط من جوانبه.